قوله : 31 - { ولو أن قرآنا سيرت به الجبال } قيل هذا متصل بقوله : { لولا أنزل عليه آية من ربه } وأن جماعة من الكفار سألوا رسول ا A أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة فأمره ا سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله ا سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم إنزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد ومعنى سيرت به الجبال : أي بإنزاله وقراءته فسارت عن محال استقرارها { أو قطعت به الأرض } أي صدعت حتى صارت قطعا متفرقة { أو كلم به الموتى } أي صاروا أحياء بقراءته عليهم فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء .

وقد اختلف في جواب لو ماذا هو ؟ فقال الفراء : هو محذوف وتقديره : لكان هذا القرآن وروي عنه أنه قال : إن الجواب لكفروا بالرحمن : أي لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن وقيل جوابه لما آمنوا كما سبق في قوله { ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء ا } وقيل الجواب متقدم وفي الكلام تقديم وتأخير : أي وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا إلى آخره وكثيرا ما تحذف العرب جواب لو إذا دل عليه سياق الكلام ومنه قول امرئ القيس : .

(فلو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا) .

أي لهان علي ذلك { بل الأمر جميعا } أي لو أن قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا وإذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات فالإضراب متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر سبحانه ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله : { أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء ا لهدى الناس جميعا } قال الفراء : قال الكلبي أفلم ييأس بمعنى أفلم يعلم وهي لغة النخع قال في الصحاح : وقيل هي لغة هوازن وبهذا قال جماعة من السلف قال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لا يكون نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعة : أفلم يتبين ومن هذا قول رباح بن عدي : .

(ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا) .

أي ألم يعلم وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري : .

(أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ... ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم) .

أي ألم تعلموا فمعنى الآية على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء ا لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات وقيل إن الإياس على معناه الحقيقي : أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن ا تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعا في إيمانهم { ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة } هذا وعيد للكفار على العموم أو لكفار مكة على الخصوص : أي لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسل قارعة : أي داهية تفجؤهم يقال قرعه الأمر إذا أصابه والجمع قوارع والأصل في القرع الضرب قال الشاعر : .

(أفنى تلادي وما جمعت من نشب ... قرع القراقير أفواه الأباريق) .

والمعنى : أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر أو جدب أو نحو ذلك من العذاب وقد قيل إن القارعة : النكبة وقيل الطلائع والسرايا ولا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك { أو تحل } أي القارعة { قريبا من دارهم } فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بوادرهم وقيل إن الضمير في { تحل } للنبي A والمعنى : أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم محاصرا لهم آخذا بمخانقهم كما وقع منه A لأهل الطائف { حتى يأتي وعد ا } وهو موتهم أو قيام الساعة عليهم فإنه إذا جاء وعد ا المحتوم حل بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة وقيل المراد بوعد ا هنا الإذن منه بقتال الكفار والأول أولى { إن ا لا يخلف الميعاد } فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة